

يوم تمشي السماء على الأرض.. لا يُشيع رجل، بل تاريخ يمتد من طهران إلى كربلاء

ثم تعبر الرحلة إلى العراق، إلى النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، حيث تختلط الجغرافيا بالعقيدة، وحيث يلتقي نعش الإمام الشهيد بمحطات شكّلت وجدان الأمة عبر قرون طويلة. فالنجف مدينة الإمام علي^(ع)، وكربلاء مدينة الإمام الحسين^(ع)، وهما المكانان اللذان استلهم منهما القائد الشهيد كثيراً من معاني الصبر والثبات والجهاد.

وأخيراً، تصل الرحلة إلى مدينة مشهد المقدسة، المدينة التي شهدت ولادته ونشأته الأولى. هناك، عند جوار الإمام الرضا^(ع)، تنتهي الرحلة الجغرافية؛ لكن تبدأ رحلة أخرى في الذاكرة والوجدان. فأن يولد الإنسان في مشهد، ويجوب عمره ساحات الثورة والجهاد والسياسة، ثم يعود إليها محملاً على أكتاف الملايين، فذلك مشهد يختصر حياة كاملة بين البداية والنهاية.

إنها ليست جنازة تعبر المدن فحسب، بل مسيرة تمر عبر أهم العواصم الروحية والسياسية في العالم الإسلامي، وكان الجغرافيا نفسها تشارك في كتابة الفصل الأخير من سيرة رجل ترك بصمته على امتداد هذه الرقعة كلها.

رحيل الجسد وبقاء النهج

سيحاول العالم قراءة المشهد بلغة الأرقام: عدد المشاركين، حجم الوفود، والرسائل السياسية التي تحملها الحشود. لكن الحقيقة الأعمق ستبقى أبعد من كل الإحصاءات.

فالجنازات الكبرى لا تقاس بعدد المشيعين، بل بما تركه من أثر في التاريخ. وحين رحل الإمام الخميني^(ره) عام ١٩٨٩، سأل كثيرون: من يحمل هذا الجبل من بعده؟ فجاءت السنوات بالإجابة.

واليوم يعود السؤال ذاته بصيغة مختلفة: ماذا بعد الإمام الشهيد؟

ويرمى بحمل التشيع نفسه الجواب. فحين تمتد الجنازة من طهران إلى قم المقدسة، وقم إلى النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، وصولاً إلى مشهد المقدسة، فإن الرسالة لا تتعلق برحيل رجل بقدر ما تتعلق ببقاء نهج. فالأشخاص يرحلون، أما المشاريع الكبرى فتستمر مادامت حيّة في وجدان الشعوب.

وعندما تنتهي مراسم التشيع، وتعود الجموع إلى بيوتها، ويهدأ ضجيج الساحات، سيبقى شيء واحد حاضر في الذاكرة: أن الإمام الشهيد لم يكن مجرد رجل من في التاريخ، بل كان جزءاً من تاريخ صنعته الإرادة والإيمان والصبر.

فياموكب الوفاء، سرنحو مودع مع التاريخ. وأنت أيها القائد الشهيد، ارتح. لقد حملت ما لا يحمله كثيرون، وتركت خلفك أمة تعرف الطريق، ونهجت تجاوز حدود الزمن، ورسالة ستبقى حية ما بقي المؤمنون بها أوفياء لها.

حين يُشيع الإمام الشهيد، لا يُشيع رجل واحد. ما سيُشيع هو عصر بأكمله. أربعة وثمانون عاماً من الصبر والعطاء، وخمسة وثلاثون عاماً من الوقوف على رأس أخطر التحولات التي شهدتها المنطقة والعالم. وحين يتحرك الموكب، لن تكون الملايين التي ستسير خلفه مجرد جمهور يشارك في مراسم رسمية، بل أمواجاً بشرية تحمل في ذاكرتها قصة رجل ارتبط اسمه بالثورة والدولة والمقاومة والأمل والنصر



النهاية تبدو امتداداً للبداية؛ فذلك الفتى القادم من مشهد، الذي عرف السجون والمطاردة ومحاولات الاغتيال، والذي حمل في يده أثر الجرح لعقود، يعود اليوم إلى المدينة نفسها بعد رحلة طويلة من الجهاد والعلم والقيادة.

جنازة بحجم الجغرافيا والتاريخ

ما يجعل هذا التشيع حدثاً استثنائياً ليس عدد المشاركين فقط، بل امتداده عبر الزمان والمكان. فالمراسم لن تُختصر بساعات قليلة، بل ستستمر أياماً كاملة، وكأن أمة بأسرها تحتاج إلى الوقت لتستوعب حجم الرحيل. ستبدأ الرحلة في طهران، العاصمة التي احتضنت مسيرة القيادة وصناعة القرار، حيث ستفتح الساحات أبوابها للوداع الشعبي والرسمي.

ومن طهران ستنتقل إلى قم المقدسة، مدينة العلم والحوزات، حيث تتقاطع السياسة مع الفقه، والثورة مع الحركة الرجعية، وهناك سيودع العلماء وطلاب العلوم الدينية رجلاً شكّل أحد أبرز رموز المدرسة الإسلامية المعاصرة.

لعقود، بل لتوديع قائد ارتبط في وجدانهم بمعنى الثبات حين تتغير المواقف، والصمود حين تتساقط الحسابات. وفي هذه اللحظة يلتقي الوجدان بالسياسة؛ فالقوة التي بناها لم تكن مستمدة من المؤسسات العسكرية أو القدرات الدفاعية فحسب، بل من تلك الرابطة الروحية والعقائدية التي ربطت ملايين الناس بشخصه كولي فقيه وقائد ورمز.

شاهد على رحيل جيل كامل

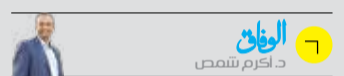
عاش الإمام الشهيد زمن الثورة والحرب والدولة. ورأى رفاق الدرب يغادرون الواحد تلو الآخر، فيما كان يحمل الأمانة ويواصل المسير. من الشهيد آية الله بهشتي إلى الرئيس رجائي، ومن السيد عباس الموسوي إلى الحاج عماد مغنية، ومن الحاج قاسم سلیماني إلى سيد شهيد الأمة السيد حسن نصر الله، كأن القدر يريد شاهدًا أخيراً على جيل كامل من الرجال الذين صنعوا أخطر التحولات في المنطقة. ولعل ما يضيء على المشهد بُعداً إنسانياً خاصاً

قد تتحوّل شوارع طهران إلى بحر من السواد البشري؛ لكن المشهد الحقيقي لن يكون في لون الرايات ولا في حجم الحشود، بل في ذلك الشعور الجماعي بأن جيلاً كاملاً يطوي صفحة من تاريخه، فيما يفتتح صفحة جديدة.

العباءة التي أدارت العواصف

سياسياً، لم يكن القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي^(ره) مجرد قائد دولة أو مرجع ديني، بل كان أحد أكثر الشخصيات تأثيراً في صناعة أحداث المنطقة خلال العقود الأخيرة؛ فمن خلف مكتبه المتواضع أديرت معارك كبرى، ورُسمت استراتيجيات غيرت موازين القوى، وأُخذت قرارات عبرت بالجمهورية الإسلامية من أصعب مراحلها.

واجه الحصار الاقتصادي فدعاً إلى الاكتفاء الذاتي، وواجه الحرب فحوّل الصمود إلى ثقافة، وواجه محاولات العزل والضغط الدولية فيبقى متمسكاً بثوابته. لذلك فإن الذين سيملاؤن الساحات لن يأتيوا لتوديع مسؤول حكم بلاده



لن يكون يوم التشيع يوماً عادياً في رزنامة الشرق الأوسط. سيكون يوماً يتوقف فيه الزمن للحظات، وتحبس فيه الجغرافيا أنفاسها بين الحزن والوقاف. لن تكون طهران مدينة عادية في ذلك اليوم؛ ستكون أمماً تمشي خلف ابنها، وثورة تسير خلف حارسها، وأمة تودع رجلاً أمضى أكثر من نصف قرن حاملاً على كتفيه همومها وأحلامها وآلامها.

حين يُشيع الإمام الشهيد، لا يُشيع رجل واحد. ما سيُشيع هو عصر بأكمله. أربعة وثمانون عاماً من الصبر والعطاء، وخمسة وثلاثون عاماً من الوقوف على رأس أخطر التحولات التي شهدتها المنطقة والعالم. وحين يتحرك الموكب، لن تكون الملايين التي ستسير خلفه مجرد جمهور يشارك في مراسم رسمية، بل أمواجاً بشرية تحمل في ذاكرتها قصة رجل ارتبط اسمه بالثورة والدولة والمقاومة والأمل والنصر.

الإمام الشهيد.. الفتى الذي لم يجد المشيب إليه سبيلاً



مما سمعته على لسان أحد الذين تشرفوا بالتعمم على يد القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي^(ره): «كنت أحسب السيد القائد شاباً، حتى التقيته عن قرب؛ رجلاً طاعن في السن؛ لكنه بهمة الشباب! لقد ازدت حباً له». عند الحديث عنه، تتداعى إلى المخيلة مجموعة من الصور والمقاطع المصوّرة: ضاحكاً ممتسحاً البارودة، ممارحاً طفلاً أو شاباً، حاملاً كتاباً. ثم تصاعد الصور تباغاً عبر مراحل عمره، فتراه باكياً على الإمام الحسين^(ع)، أو منكباً على القرآن، ثم تشع أكثرها لطافة، تلك التي يكون فيها متوسّطاً مجموعة من الفتيات الصغيرات المتجلببات بالشادور الأبيض المنقوش بالأزهار الملونة.

أعترف أنني لم أكن في بدايات عمري من الذين فهموا الإمام الشهيد، فقد أحاطت به في لبنان مجموعة من السجلات والنقاشات الفقهية والسياسية، والتي ساهمت بطريقة أو بأخرى في فتح باب المعرفة لدي. بدأت بالبحث والمتابعة، وانطلقت من سير حياته، ومحطات نشاطاته اليومية، وبعض خطبه. أذكر أن أول مرة جذب فيها قلبي كانت إثر مرض ألمّ به، حيث وقفت ملتصقة على بعض سمات شخصيته المهمة كاليسمة التي لم تفارق وجهه رغم التعب، والإصرار الحثيث على متابعة عمله ولقاءاته، بل حتى آداب الطعام لديه واهتمامه بالقيام ببعض الأمور بنفسه من دون كلل. سماتٌ شابهت

سمات الصالحين والمُتّقين، وسمخت بفتح باب المحبة على مصرعيه.

ثم أن هذه الصور والمحطات أشرقت في الفكر لتكوّن لديّ المعنى العملي للفتوة. ذلك المفهوم المنبثق من شخصية الإمام علي^(ع)، الفتى الأول والأعظم في التاريخ. وما بين عليّ وعليّ، نسب وورثة واقتداء. وتحضر الفتوة فيه في كونه شخصية مركبة من عناصر متنوعة ومتباينة في آن واحد، فهو الرياضي والعابد، والعطوف والحازم، والحاكم والزاهد، والعارف والعالم الممسك بزوايا الفقه والفلسفة والأدب والشعر والفنون والعلوم التطبيقية والعسكر والسياسة، ليكون الشخصية الجامعة التي تمكنت بفضل سعة اطلاعها من إبراز منهج قيادي حديث، يندر أن تجده في التاريخ. وانطلاقاً من مسار حياته، خلصت إلى استنباط أربعة عناوين مرتبطة بمعاني الفتوة: فتوة الحياة، فتوة السلوك، فتوة الإرادة، وفتوة الفكر.

أولاً: فتوة الحياة

تتجلّى فتوة الحياة في التواضع العملي الذي حرص على الالتزام به في كافة جوانب حياته، من الملابس والمسكن ورفضه للمظاهر البروتوكولية في العديد من المواقف، وإصراره على التماهي مع الحياة اليومية للناس، بل التواجد معهم والاتصال الدائم بهم، فلم يجسد السلطة بقدرما جسّد القيادة المتواضعة الرسالية التي تحتضن وتواسي وترزق وتستقبل وتوجه وتساند وتُلمهم وتكون على مسافة قريبة من الأطفال والشباب والرجال والنساء والشيوخ.

ثانياً: فتوة السلوك

التي تتجلى في الأبعاد الأخلاقية لفكره وسلوكه، حيث يوصي بممارسة الإسلام في ضوء الأخلاق العملية ومسار التكامل الإنساني، على صعيد الفرد والأمة والمجتمع. وكان في ذلك نموذجاً عملياً وفتوة صادقة للتواضع والعودة والعفو. ويستوقفني حديثه عن محورية الأسرة، وتأكيده على دور أفرادها في مسار التكامل الفردي والمجمعي، واهتمامه البالغ بالمرأة وتعظيم مقامها ليس بالقول فقط، بل بالفعل والتشريع والتوصيات. وما نراه من تقدم وحدانية في النظرة إلى المرأة وإفراكها في كافة جوانب حياة الجمهورية الإسلامية الإيرانية وصولاً لمرآكز القرار ليس إلا دليلاً على النهضة السلوكية والأخلاقية، والتي شكّلت نقطة انطلاق لإعادة صياغة واقع الأمة لا الجمهورية الإسلامية فحسب.

ثالثاً: فتوة الموقف والإرادة

المتتمثلة بالثبات على الحق والمبادئ حيث كان يكرر في خطابه ومواقفه أنه جزء من مشروع حضاري، لا مجرد نظام سياسي ينتهي بذهايه. وقد عمل على تثبيت مبدأ المقاومة كخيار استراتيجي، مبدأ لم يسبق لأي نظام في العالم أن عمل به، نجده يحمله كشعار وأصل ومسار ثابت صيغ مؤسسات الجمهورية الإسلامية ووافقها وخطتها الاستراتيجية. ولسنا هنا بصدد التذكير بدعم الجمهورية الإسلامية لحركات التحرر والمقاومة في العالم، والتي انتهت إلى شهادته المباركة، ناشطاً في مكان

عمله صلماً غير متوار ولا مختبئ! وهل يكون غير ذلك؟ وهو الذي أعلن مبكراً: «أنا ثوري ولست دبلوماسياً».

رابعاً: فتوة الفكر

من الاهتمام الخاص بالقرآن والسعي العملي لترسيخ علاقة المجتمع به إلى الإبداع في طرح مفهوم جهاد التبیین وإحياء دور كل فرد في مواجهة التسليل وترسيخ القيم، إلى التحليل الاستراتيجي العميق لحركة الرسالة المحمدية عبر مفهوم «إنسان بعمر ٢٥٠ سنة»، شكّل القائد الشهيد ثروة فكرية ومعرفية لم تنبثق محصورة في الكتب واللقاءات، بل تحولت إلى منهج عملي ظهر في الإعلام والفن والأنشطة الثقافية والعلوم والمأسسة والمواقف المحلية والدولية.

إن شهادته المباركة واندلاع الحرب الأخيرة، وظهور جزء من اقتدار الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ليس إلا إثباتاً مهماً على أنه قد بنى هذه الدولة للمستقبل لا الحاضر. وللاقي البعيد لا الآتي القريب، وللا انتظار لا الركود. وهناترأعمق معاني فتوة الفكر، بوصفها حركة تتجاوز التفكير الاستراتيجي إلى ما هو أبعد وأعمق منه. أربع فتوات في رجل، لا يمكن اختزاله فيها. وعمزٌ مديد من العطاء والعمل والتكامل والتأثير والتأسيس والتثبيت، عبثٌ بالإيمان والعلم والمعرفة والحزم والعمل الدؤوب، وظلٌّ يعقب حتى وصل إلى ذروة الامتلاء الانساني ففاض بالشهادة، ليغدو حين قارب التسعين «الفتى الذي لم يجد المشيب إليه سبيلاً».

